

آذار ١٩٣١

مسألة الشر

نبذة فلسفية

للاب ارمند اودين من جمعية قلب يسوع^{١)}

نوظنة

يوم قامت تجاه العقل البشري مسألة الشر المزعجة ، فاخذ الانسان
 اي في حاتها ؟ ألم يكن ذلك في اليوم مية الذي دخلت فيه الحطيثة
 الى العالم ، مصحوبة بحملة الشرور التي لم يكن ليختبر الانسان
 منها شيئاً ، لو كان ثبت في البر والطاعة لحاقه ؟ اليس وتعرض خطر على بال
 آدم هذا السؤال : لماذا نشاهد ، بل نكابده هذه البلايا ، وتعرض لهذه
 المصائب التي لا تزال تتناوب على تعذيبنا الى ان يدركنا ما نحسبه طبعاً اعظم
 الشرور وارهبا ، اي المحلال كياننا وعودة جسدنا الى التراب الذي اخذ منه ؟

(* صحح عبارتها وعني بشرها على صفحات هذه المجلة انفس اسفلان فرحات الراهب
 اللبناني .

ولماذا امتلاً هذا العالم مضادةً بين ما تسمي الكائنات تحصيله من الكمال ،
وما يحلُّ بها من النقائص مع ما يحيط بها من عوامل التصادم والنقاء ؟
ولم ترَ عقول البشر مشغولة بهذه المسألة الى يومنا هذا ، وكثيراً ما كتب
فيها الفلاسفة على اختلاف مبادئهم ومذاهبهم ، ولا شك ان الوحي الالهي قد
اتما في هذه المسألة - كما في سائر المسائل الفلسفية العالية - بائناً مساعدةً لفهم
ماهية الشرّ فتميّز أنواعه ، ونظراً وجوده ، ونبهت عن اصوله . فقصدنا من
هذه المقالة هو ان نجمع اهمّ ما يفيد القراء بهذا الصدد ، فسهل بذلك مهمة
من يجب عليهم ان ينيروا عقول المؤمنين في هذا الموضوع ، فيزيلوا من انفسهم
كل ظنّ بان وجود الشرور يتأفي حكمة الخالق وصلاحه ، ويدل على قصور
قدرته ، او نقص عنايته . لان هذه الآراء الباطلة هي التي جلبت على كثيرين
شرّ جميع الشرور ، اي فقدان الايمان ، والفرق في لغة اليأس والكفر .
غير ان البحث في اصول الشر وعلله يقلُّ نفه ، ان لم تبين ما هو الشرّ ،
وما هي انواعه . لذلك تقم هذه المقالة الى قسمين : نبحت في الاول عن
ماهية الشر وما يفيد تمييزه من انواعه . وفي الثاني عن اصول الشر ونسبته الى
عناية الله مدبر جميع الخلائق ومرتب احوالها وافعالها كافة .

في ماهية الشر وانواعه

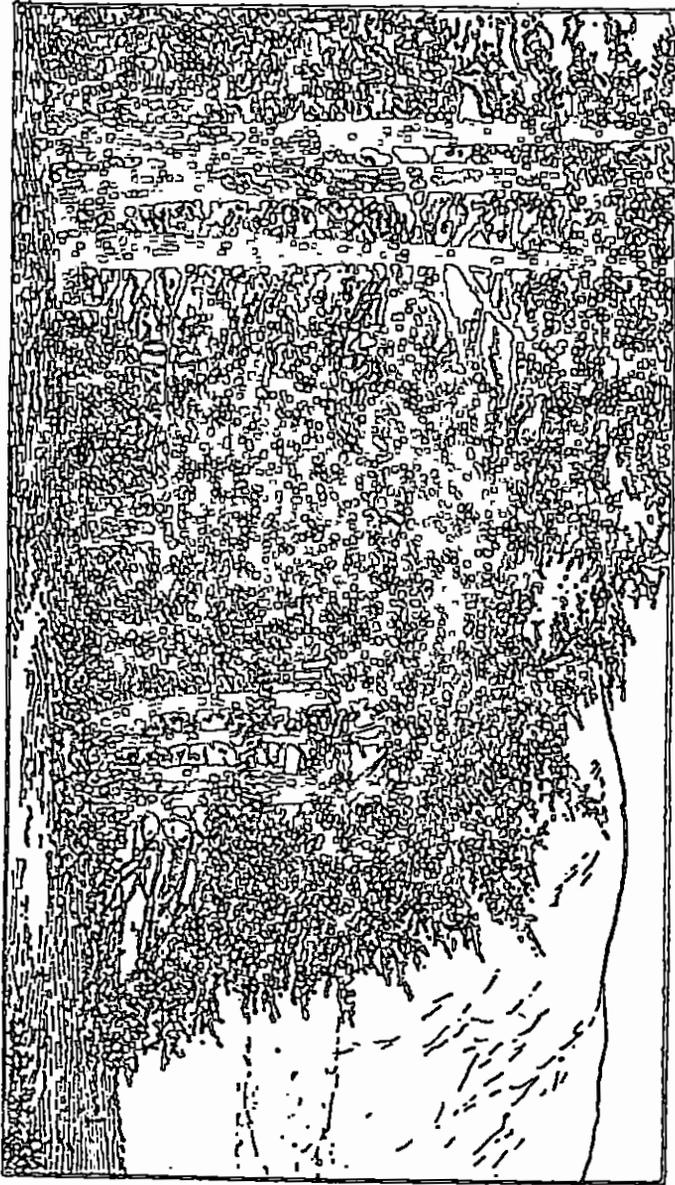
قد قلنا ان ابانا الاول ، آدم ، اخذ يتأمل في الشرّ يوم رأى نفسه فاقداً
ما كانت يد الله السخية قد زيقته به من المواهب . ولكن اذا اعتبرنا ما
كانت عليه احوال الكائنات التي اوجدها الله حول آدم قبل معصيته ، نظطر
الى الاعتراف بان بعض الشرور كان في العالم ، حتى وفي الفردوس ايضاً حيث
شاهده آدم ، فيحتمل كثيراً انه سأل نفسه حينئذٍ ، كما نتساءل نحن اليوم :
ما هي هذه النقائص ؟ ولماذا لم يصنع الله بربايه مثزّمة عنها ، بل كاملة من
كل جهة ؟

فلايضاح ذلك اعتبر اولاً : ان الشر ليس سوى سلب الخير ، او الخلو



احدى الارزات التديمة

بعض ارزات حدیثہ



منه ، ولكن ليس كل خير يُدعى الخلوّ منه شرّاً . بل ذلك الخير وحده الذي يُجيب بلائاً لطبع الشيء الخالي منه ، ولازماً لبلوغ غايته . فهما خلا الانسان من كمال الطبيعة الملائكية فلا يقال : ان هذا فيه شر . اما اذا فقد الرشد ، او صارت ارادته مصوّجة ، فلا شك في كون هذا شرّاً . وعدم استطاعة الانسان على الطيران مثل المصفور ، او على الركض مثل الأيل ، ليس فيه شرّ . اما اذا اضحى اعمى ، او اصمّ ، او مجنّباً ، فلا يُرتب في كون حاله هذه هي شرّ ، فحدّد من ثمّ الفلاسفة الشرّ قائلين : هو خلوّ الشيء مما يلزمه من الكمال . فكلما نقص كمال او خير شيئاً تقتضيه طبيعته نحصل على غايته ، قلنا : ان في ذلك الكائن شرّاً .

تأمل في ما كان حال الفردوس الذي وضع الله آدم فيه ، كما في مسكن فخم معدّ له ، فانه كان هناك عدد عظيم من الحيوانات والنباتات على اختلاف انواعها ، وكانت الحيوانات ثمّ ، كما زأها اليوم ، محتاجة الى الاعتناء بكل النباتات ، وكان يقتل بعضها بعضاً ؛ ولا شك ان النبات الذي يتهمه الحيوان ، يصيه نوع من الشرّ ، لان طبيعته كانت تطلب المحافظة على حياته وعلى سلامة اعضائه . وقل كذلك عن الحيوان الذي يهاجمه حيوان آخر اقوى او امكر منه ، فيقتل عليه ويقتله ليتغذى بلحانه ، واذن فيظهر ان عالمنا هذا كانت فيه شرور دائماً ، منذ خلق الله النبات والحيوان . ويتضح من ثمّ ان آدم علم شيئاً من الشرّ قبل سقطه الاولى .

تصوّر الآن ما جرى في عقل آدم ، لما سيع كلمة الله القائل له : « لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر ، فانك يوم تأكل منها موتاً » (تكوين ٢ : ١٧) ، فاول شيء نستدلّ عليه من هذا الكلام ، هو ان آدم كان حينئذ يدرك معنى لفظة الشرّ ، واذن فلم يكن يجهل الشرّ . ثم لاحظ ، ايها القارى اللبيب ، ان آدم فهم من الكلام عينه انه من باب الممكن ان يصير هو نفسه محلاً لبعض الشرور ، لا بل لاعظما ، الذي هو الموت . ولكن هل انحصر في ذلك ما ابانه تهديد الله بالموت لآدم ، ان اكل من الشرّ المحرّم ؟ كلا ، فانه تعالى نوى بكلامه هذا ان يتنبه آدم الى ما يصيبه من العقاب اذ

خالف ارادة مولاه . والقاب لا يفهم ان لم يسبقه ذنب . فبان اذن لمقل آدم ، انه يمكن ان ينهي تصرفه في حرية الارادة التي ازدانت بها طبيعته الناطقة ، فيمضي ربه الاعظم صائراً بذلك محلاً لشر جديد ، لم يكن بمبدأ ظهر في الدنيا ، الا وهو الذنب او الشر الادبي ؟ نعم ان هذا الشر كان قبل ذلك الوقت ، قد ابتداء بالوجود بين الملائكة ، فان آدم لم ينتقل الى ذنبه الا بتجربة واغراء من بعض الارواح التي سقطت بتمردهما ، وهي الشياطين . ولكن لا شيء يدلتنا على ان آدم قبل خطيئته علم حال الشياطين . ولهذا نقول انه ادرك طبع الشر الادبي ، كأمر ممكن الحدوث لا غير .

فترى من ذلك ان الشر تراءى لذمن آدم ، اولاً كحادث طبيعي ينتج لا محالة من ماهيات الاحياء التي يقتضي تنوعها ان يجارب ويقاوم بعضها بعضاً ، وان يعني اقواها اضعفها ، وهذا هو الشر الذي نسميه شرراً طبيعياً . ثانياً ظهر لمقل آدم ان ما شاهده من ذلك الشر في المجاوات ، مع ما يتقارن به من الوجع ، يمكن ان يصيبه هو ايضاً ، وذلك بحكم من الله الذي يرتب هذا الشر لمعاينة الانسان ، ان أبي العباد ، والطاعة الواجبتين عليه لاله . فهذا هو الشر الطبيعي الحال في الخليقة الناطقة ، وهو بذاته غير مختلف ، كما هو في الخلائق النيرة الناطقة . لكن هذه تتعرض له بمجرد طباعها والنظام الذي اقامه الله بين انواعها . اما الانسان فيصيبه هذا الشر على مقتضى المدل الالهي كسمة لهصية الانسان ، ولهذا يدعى هذا الشر الطبيعي ، الذي اصبحنا له عرضة بالخطيئة ، شرراً عقاب او قصاص . ثالثاً واهم ما انكشف لمقل آدم هو ماهية هذا الشر ، الذي لا يمكن حلوه ، الا في الخليقة الناطقة ، لقيامه بعدم خضوع الارادة المخلوقة الحرة لارادة الخالق الاسمي ، وهو المعروف بالشر الادبي .

واذن فقد بينت لك بايجاز الكلام ، ما هو الشر على وجه العموم ، وكيف ينقسم الى انواع مختلفة ، وقد مر بك ان حقيقة الشر تقوم بمجمل كائن من كمال لازم له . ثم ان بعض الشرور تحصل من نظام الطبيعة ، ومضادة بعض انواع الكائنات للبعض الآخر ، وهو ما نسميه شرراً طبيعياً .

ويتميز عنه اثر الادي ، الذي لا مبدأ له سوى ارادة الخليقة الناطقة ، وهو القائم بخدم خضوع هذه الارادة لمشيئة الله . ثم ان الشر الطبيعي كلما حل في الخليقة الناطقة كماقية لشر الادي ، واصلاحاً للنظام الذي اخلت به الارادة ، يدعى عقاباً او قصاصاً .

لكنه يفيد ان تزيد ايضاً لما يوجد من الفرق بين الشر بين الطبيعي والادي ، لنفهم لماذا اجمع ارباب علم اللاهوت على ان الشر الادي يفوق الطبيعي فظلمة بما لا حد له ، بحيث يجب ان نفضل احتمال الشرور الطبيعية ، هما كثرت وعظمت ، على الانتقاد الى الشر الادي باقتراف خطيئة هما كانت خفيفة . فاعلم ان مبنى هذا الحكم يؤخذ من اعتبار نسبة المخلوقات الى الخالق . فانه تعالى هو نفسه الناية القصوى التي ترتب لما الخلائق قبل ، وفوق كل ما سواها . ومن ثم اول خير يلزم وجوده في الخلائق هو انها تمجد بارها بانجاز مشيئته بالطريقة الملائمة للطبع الذي اعطاه لكل واحدة منها . وهذا ما تحلته الخليقة الناطقة كلما كان فيها شيء من الشر الادي . لان هذا الشر يتاني خضوع الارادة المخلوقة لمشيئة الله . وهذا الخضوع هو الطريقة المناسبة لطبع الكائن الناطق لتسجيد الخالق . واذن فان الخليقة الناطقة تفقد بكل شر ادي ، اول خير يلزم وجوده فيها . وليس الامر كذلك في الشر الطبيعي ، فانه لا يتاني سوى بعض الخيرات الثانوية التي يكون خيرا منها اكثر جوازا واحتمالاً من عصيان الارادة المخلوقة على ارادة الله . ولهذا يجب دائماً الشر الادي اشنع وابعد عن الاحتمال من الشر الطبيعي ايأ كان . وهكذا يحكم كل عاقل ان الشر الادي ، دون ما سواه ، هو عيب وشين في حياة الانسان . وان شرفه وفضله يقومان باستعداده الثابت لا يثار مكابدة انواع اثر الطبيعي كلها ، على ان يدنس نفسه بالشر الادي .

وتكثيراً لما قيل في الشر الطبيعي ، لاحظ ان فيه درجات متفاوتة جداً كبقاوت اصناف الكمال ، التي تنافيا الشرور المختلفة ، فلا ترتب مثلاً في الحكم ان فقدان الانسان رشده هو شر اعظم من خسارته ماله . لكون كمال العقل انفس من النفي المادي باضفاف . وكذلك ان المسمى في الانسان

هو شر اكبر مما هو في الصجاء ، لانه بقدر ما طيبة الانسان هي اشرف من طبائع البهائم ، يكون خاوتها من بعض خواصها اشد مضادة لما ينبغي وجوده من الكبر في جملة المخلوقات . فيجوز اذن ان نقول ان شرّاً محسب اعظم من غيره من وجهين : الاول اهمية الخير الذي ينفيه . ثانياً شرف الكائن الذي يخلو من بعض ما يقتضيه طبعه من الكمال .

ولا خفي ان المصنوعات هي ايضاً محل للشر . فانها قد تخلو من الكمال اللازم لبلوغ غايتها . كما لو كان بيت اضيق مما تستلزمه سهولة العيشة فيه ، او كان قليل النور . فاننا لا نرتب في القول ان فيه شرّاً . ولا يختلف هذا الشر الذي في المصنوعات عن ذلك الذي في الطبيعيات . فيدعى ايضاً شرّاً طبيعياً .

لكننا بكل ما تقدم لم نجابو بمدى على سؤال قد شغل كثيراً عقول المفكرين ، ألا وهو: هل للشر وجود حقيقي في الاشياء ؟ ام في عقلنا فقط ؟ ولا يصر الجواب ، اذا اعتبرت ان الشر ليس سوى خلو كائن من الكمال الملائم له . فليس اذن الشر شيئاً حقيقياً ، بل نقي شيء حقيقي . وهو من باب الاشياء التي يتصورها عقلنا ، ويحملها على الموجودات ، غير ان حقيقتها كلها هي فاقمة بلب ، نحو الهوى والصم والجهل والجمود وما اشبه . وقد سمى الفلاسفة مثل هذه الاشياء كائنات اعتبارية ، ولا شك في كون الشر من جنسها .

ولكن يحدث ايضاً ان اسماء بعض الاشياء تغير معناها ، فتنتقل من مستاهم الاول ، الى ما يثلثه او يحدته او يرتبط به ، كما نراه في الالفاظ التي يدعوها ارباب المنطق مشككات او ملتبسات . هكذا اسم الشر فهو مشكك ، لانه ، زيادة على معناه الاصلي المأذ ذكره ، قد يتخذ للدلالة على ما يتبعه لا محالة خلو كائن من الكمال اللازم له . هكذا نقول: ان كل غلط هو شر في العقل ، مع ان الغلط ليس هو خلو العقل من الكمال الملائم له ، اي معرفة الحق . لكن الغلط يرتبط بهذا الخلو بمعنى ان من يغلط في امر ما ، فلا يمكن ان يعرف الحق في الامر عينه . وكذلك يقال : ان الغضب الشديد هو شر

لانه ينافي هدوه النفس وصحو العقل ، مع ان الغضب ليس هو الخلوّ منها ،
ولكن هو اتصال نفس يتبمه لا محالة هذا الخلوّ ، فقس على ذلك سائر الصفات
والحالات ، التي تلاحظ انها قد تسمى شروراً مع انه يظهر انها لا تقوم بلب
بل بشيء وضمي .

٢

في اصول الشر

لا غرو اذا لقينا من الصعوبة والنموض ، في هذا الجزء ، ما لم نلقه في
الاول ، فان اشياء عديدة نستطيع ادراك طباعها ووصف خواصها ، غير انا
نمجز عن اكتشاف مبادئها ، كمن يشرف على نهر ويتبع جريان مائه ، لكنه
لا يرى قط نبه ولا يدري اين هو .

واعلم ان الفلاسفة طالما لاحظوا ان الخلائق هي محلّ وعرضة للشر ، من
حيث هي مخرجة من المدم ، فانها من هذه الحيثية تحصل على وجودها لا
وجوباً بل حدوثاً ، وكما انه يمكن عدم وجودها كذلك يمكن خلوها من
بعض ما يختص ببله الوجود الذي يلائمها . وهذا اول جواب على السؤال : كيف
تعرض الخلائق للشر ؟

اما حلول الشر بالفعل ، في بعض الكائنات ، فيبين الاختبار انه ينسب
في الغالب الى فاعل او آلة محدثة . وهذا يكون على نوعين تندرج تحتها جميع
العوامل التي تحدث شراً بتأثيرها :

النوع الاول : هو العلة الناقصة الفعل ، اي التي لا يكفي تأثيرها لترقية
مفعولها الى درجة الكمال الملائمة لطبعه والمناسبة لغايته ، كالصانع الذي كلما
قلت مهارته في صناعته ، او نقص اجتهاده في ممارستها ، خلا مصنوعه من
الكمال الواجب ، ويكون فيه شر . وكذلك قد ينسب جهل التلميذ الى
عدم فطنة مهذبه ، او قلة اهتمامه وحزمه . ومن لم يبذل قصارى جهده في
ترويض نفسه على الفضائل ، فلا يزال خالياً منها ، وهذا شرّ عظيم منسوب الى
نقص فعل الانسان .

النوع الثاني: هو العلة التي تطبع بتأثيرها صورة تضاد الصورة التي يقتضيا كمال الشيء المطبوعة فيه . ويهون ادراك ذلك في هذه الامثال . اذا كنت في وسط هواء بارد جداً تفقد الحرارة اللازمة لراحة جسدك ، فهذا شر منسوب الى الهواء الذي يحدث فيك البرد المضاد لتلك الحرارة . واذا صدقت خبراً غير صحيح ، كان هذا شراً منسوباً الى من اسمك ذلك الخبر ، فولد في عقلك بكلامه رأياً مخالفاً للحقيقة . ومن تعود بعض الرذائل ، يخلو بما يضاهاها من الفضائل ، وهذا ايضاً شر جلبه الانسان على نفسه من حيث اصل في ذاته الملكات المنافية لتلك الفضائل .

اما اثر الذي في المصنوعات فلا يجب ان ينسب دائماً الى علة فاعله سواء كانت من اول النوعين المذكورين او من ثانيهما ، فانه يحدث ايضاً ان تحمل نقائص في بعض المصنوعات لمجرد مقاومة المادة لتأثير الصانع مهما كان ماهراً ، واجتهد في اتقان عمله . فتصور مثلاً ما يجري اذا أمر نجار بصنع مائدة من خشب فابعد وناخر ، او اذا طلب من نجحات ان يعمل تمثالاً من حجر غير ملائم ينقت تحت كل ضربة من النقاش ، فيكون المصنوع من كلتا الحالتين ناقصاً في جماله ومثابته ، فينسب هذا الشر عندئذ الى المادة لا الى الصانع .

فهذا ما تهنا معرفته بخصوص علل الشرور التي نشاهدها في الكائنات الغير الناطقة ، اما الشرور التي تحمل في الانسان فانها تستحق اعتباراً خصوصياً ، حتى نعلم ما هو مصدرها واصلها ، تذكر ما قيل آنفاً في الشر الالادي ، وما يلحقه من الشر الطبيعي الذي يدعى عقوبة . وعللة الشر الالادي ما هي الا ارادة الانسان الحرة التي ابت الخضوع لمشيئة الله ، ويتحقق فيها ايضاً ما قد مرّ تبياناً من جنسي الملل التي تحدث شراً بفعلها . اي ان ارادتنا قد تكون محدد بشر ينقص فعلها الذي فيه من الجلد ما ينبغي ان يكون . ومن هذا الباب الخطايا التي اصلها القنور والتقصير والرخاوة وما اشبه . وتكون الارادة مرات اخرى منجم ذنوب ، بالتهافتها الى مواضع تضاد ما يجب ان تؤثره وتجتره . وهذا ما يحصل حيناً يتقاد الانسان الى نيات ذميمة ومقاصد مخالفة للشريمة الالهية . ثم لا يخفى ان عللاً عديدة قد تجر الارادة الى اقرار

الخطايا . منها ما في داخلنا ، كالتلذذ والجهل من جهة الذنن ، والشهوات من جهة جزئ طبيعتنا الحيوانية . ومنها أيضاً ما يصيبنا من الخارج كالأمثال الرديئة وأقوال الحثاء الخائنين على المنكرات ، وما في بعض المحسوسات من القوة الجاذبة ، كاجتذاب الحمر للشريب والدرام المروضة في مكان مشهور لمن اعتاد السرقة . فتكون هذه الأشياء كلها عللاً للشر الأدنى . ولكنها ثانوية بالنسبة الى الإرادة التي هي دائماً مبدؤه الاصيل والرئيسي .

اما المقاب ، فبلي انه يُعزى الى ذلك الذي يختص به الحكم باتزاله ، وهو الله تعالى نفسه . نعم ان كل رئيس يشترك في هذه السلطة ، ومن فروضه ان يحكم على مخالفتي الشرائع من مرسوميه ، فيعاقبهم وفقاً للشرائع عينها ، الا ان هذا العمل العدل المقاب يختص أولاً واصالةً بالله سان الشريعة الطبيعية ، وصائن النظام العمومي الواجب ان يحفظ في كل العالم ، ولهذا لا ننسب ما يصيبنا من انواع القصاص الى بعض البرايا إلا من حيث نعتبر هذه في يد العدل الالهي كآلات يستخدمها عز وجل لتنفيذ احكامه ، ويمين طبايعها وكيفية تأثيرها فينا حتى يكون القصاص موافقاً لمقتضيات العدل مع ما تقتدر به من مقاصد الرحمة . وهذا اذا تكلمنا عن عقوبات هذه الدنيا حيث يتبرج دائماً عمل العدل بتأثير الرأفة - خلافاً لما يكون في الآخرة حيث يملك العدل وحده ، ويستوفي مطالبه بتمام الدقة والشدة .

فترى من ذلك ان جميع الشرور التي فيها حقيقة المقاب تنسب نسبة خصوصية اليه تعالى ، اما الشرور الطبيعية التي تحتلها الحيوانات والنباتات ، والتي تحصل من نظام العالم ، واختلاف الانواع ، فلا شك في كون الله ايضاً علتها ، ما دام هو مبدئ نظام الطبيعة ومرتب نواميسها ومنشئ كل انواع الكائنات مع ما يلزمها ويلحقها من الخواص . ولا بأس في ان الله هو مصدر تلك الشرور ، لا من جهة منافاتها لبعض الخيرات الجزئية ، بل من حيث افادتها لخير الكون العمومي الذي يتفضل جداً على ما لبعض اجزاء الكون من المصالح الخصوصية ؛ وبكل صواب يشبه عمل الله في ذلك بعمل البستاني الذي يقلع اعشاباً ويقتل هواماً ويقطع اغصاناً عديدة ايضاً حتى وفي اجود

الاشجار ؟ وكل هذا شر لا يُقْلَع ويقتل ويقطع ، غير انه خير عظيم للبستان كله وشرط ضروري لتكثير ثماره .

اما اذا سألت : يجوز ان تنسب اليه تعالى الشر الالهي ايضاً ؟ اجبتك مع جملة ارباب علم اللاهوت بالنفي المطلق ، فانه من اشنع التجديف التي انتقاد اليها بعض المنافقين بقولهم ان الله هو بنوع ما يحدث الشر الالهي ، او مبدئ الخطيئة . كيف لا وان هذا الشر يضاد قداسة الله كل المضادة ، ويمد الخليقة عن الظاية التي خلقها الله لاجلها ، ولا يقتأ يهديا اليها ، ألا وصي كمال اتحاد الخليقة الناطقة بياربها وحصولها بالحال على ملء السعادة . فلو كان الله علة للشر الالهي لكان يضاد نفسه ، وينقض عمله بنفسه . فحال اذن ان يصدر الشر الالهي منه تعالى ، وان ينسب اليه على وجه من الوجوه

الا اننا اعتدنا القول : ان الله يسمح بحدوث الشرور الالدية . أفلا نعتني بيئه المبارة نوعاً ما من التأثير يكون الله به محدثاً لتلك الشرور . حاشاً ، فان سماح الله بحدوث الخطايا لا يتضمن شيئاً من التأثير والابداء ، وهذا ما بقي علينا اثباته . ولكون هذه المسألة على جانب من الاهمية ، يحسن بنا ان نخصص لها مقالة نبحث فيها عما هو سماح الله بالشرور وعما يسوغ ان يجاب به من يسأل : لماذا ولاي غاية يسمح الله بما يحيط بنا بل يضرنا من الشرور في هذه الدنيا ؟ وما يؤثول بكثيرين الى اقظع الشرور ، اي الهلاك الالدي ، وهو المصيب ، والمنير ، وعليه الاتكال ؟

